وانشرح قلبه للإيمان

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

obeikandl.com

obeikandl.com

قالتِ الأُمُّ لابْنَتِها آمِنَةَ:

– خذي «مارْك» وفرِّجيه على (جامعِ حسَّانَ) ريثما ينضجُ العَشاءُ.

وحاولت آمنةُ التملُّصَ من المهمَّةِ الشَّاقَّة، فإنجليزيتُها الضعيفةُ لا تقوَى على حديثٍ طويل، ولكنَّ والدتَها لم تُمْهِلْها، توجَّهَتْ إلى (مارْك) قائلة:

– كفى تلفزيونًا! آمنةُ ستُفسِّحك في جامعِ حسانَ الأثريِّ القريبِ من هنا.

آمنةُ في الثالثةَ عشرةَ، رشيقةٌ، حييَّةٌ، مرهفةٌ، قليلةُ الثقةِ بنفسها، رَغْمَ ذكائها، ولكنها متقدمةٌ في دراستِها الثانوية، وتُتقِنُ العربيةَ والفرنسيةَ، وتتعلمُ الإنجليزيةَ.

ورافقت «مارك» الذي كان يكبرها بأربع سنوات إلى المسجد القديم. كان مخُّها يدور بسرعة. لم تكنْ تفكر فيما ستقوله له عن الجامع، بقدر ما كانت تفكر في كيف ستقوله له بإنجليزيتها المحدودة.

كان «مارك» قد جاء إلى المغرب – لأول مرة – لزيارةِ أخته

أيلينَ المتزوجةِ بخالِ آمنة، وعرفتْ آمنةُ من حديثه مع والدِها الديبلوماسيِّ القديم أنَّ مارِكَ مهتمٌّ بالإسلام رغم أنه مسيحيٌّ ولا يمانعَ في أن تعتنقَهُ أختُه ما دامتْ متزوجةً بمسلم.

وكانَ هو الذي تطرقَ إلى الموضوعِ مع والدِها أثناء شاي المساء، قال له:

«رأيتُ أيلينَ مهتمةً بقراءةِ القرآنِ في ترجمتِه الإنجليزية، والتمعُّنِ في آياتِه ومعانيه. وقد قالت لي: إنها فوجئت بغِنَى هذا الكتاب السماويِّ الذي لم يسبقْ لها أن قرأته، وثرائِه الروحيِّ والفكريِّ ودقتِه وشموليَّتِه في تنظيمِ المجتمعِ الإسلاميِّ واحترامِه للأديانِ السماويَّةِ الأخرى...»

وعقّبَ والدُها بما معناه أنَّ الإسلامَ مجهولٌ في الغربِ، بل وأُسِيءَ فهمُه بسببِ التنافسِ بين الأديانِ، ولأسبابٍ تاريخيَّةٍ يطولُ شرحُها، خصوصًا بعد قيامِ إسرائيل.

وفهمتْ آمنةُ وهي تنصتُ إلى مارك أنَّهُ كان يحكي عن مواجهةٍ بينَ أختِه أيلينَ وأبيه حين رآها مستغرقةً في قراءةِ القرآنِ، فأخذَ يمازحُها بقوله:

«هل تُعدِّينَ نفسَكِ للبسِ الياشْمَاك (الحجاب)؟ وماذا سيكونُ موقفُكِ حين تكتشفينَ أن لِعَليٍّ زَوْجِكِ ثلاثَ زوجاتٍ أخريات؟!»

وحكى «مارك» عن كيفَ أنها أجابتْه بلهجةٍ جادةٍ وحازمةٍ: «أعتقدُ أنه ينبغي لكَ أن تقرأَ هذا الكتابَ أولاً، سيصححُ كثيراً من مفاهيمِك الخاطئةِ عن الإسلام!»

فسألَ الوالدُ مهتمًّا: «مثلُ ماذا؟»

فأجابتْ بثقةِ العالمِ: «مثلُ حكايةِ الياشماكْ السخيفةِ هذه. فغطاءُ الوجهِ ليس مفروضًا على المرأةِ المسلمةِ، كما تُصوِّرُ ذلك الأفلامُ الغربيَّةُ التافهةُ. وكذلكَ تعدُّدُ الزوجاتِ، فقدْ حرَّمه القرآنُ بطريقةٍ واضحةٍ غير مباشرةٍ، إذ اشْترطَ العدلَ بينَ الزوجاتِ، وهو شرطٌ تعجيزٍ! فحتى لو عدلَ الرجلُ في تقسيمِ النفقةِ فإنه لا يستطيعُ العدلَ في تقسيمِ الحبِّ. ولا بد له من زوجةٍ مفضَّلة!»

وقرأت له من المصحف: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ ثم: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾.

وكررت الآيةَ الأخيرة مرتين، وأضافتْ: «وهذا منعٌ صريحٌ للتعدد!»

ونظرتْ أيلينُ إلى والدها، وقالتْ: «هل بقيتْ لك أفكارٌ مثلَ هذه تريدُ مناقشتَها؟»

قال ماركُ: «ومن ثمَّ كفَّ الوالدَ عن ممازحتها في هذا الباب. واحترمنا جميعًا شعورَها. وفي نفسِ الوقتِ زادَ فضولُنا لمعرفةِ ما في الكتابِ الإسلاميِّ المقدسِ من أسرارٍ.»

فعقّبَ أبوآمنةَ: «أنا الآخرُ كنتُ أجدُ لذَّةً خاصةً في محوِ بعضِ هذه المفاهيمِ الخاطئةِ من أذهانِ الجمهورِ الذي كان يأتي للاستماعِ لمحاضراتي، عبرَ الولاياتِ المتحدةِ، أيامَ كنتُ دبلوماسيًّا هناك، كان يفاجئُهم دائمًا قولي بأن من شروطِ اعتناقِ الإسلامِ الإيمانَ بالأديانِ السماويةِ السابقةِ، كاليهوديةِ والمسيحيَّةِ، والتصديقَ بنبوَّةِ موسى وعيسى، عليهما السلام، وبالكتابينِ المقدسين: التوراةِ والإنجيلِ. وكانوا يفتحونَ أفواهَهُم حين أقولُ: «إن المسيحيَّ واليهوديَّ، حين يدخلان الإسلامَ، فإنهما لا يضحيَّانِ بروح عقيدتيهما، بل يضيفانِ

إليها عقيدةً أجدَّ وأسمى وأكثر قربًا من الفطرة البشرية...»

ومن فحوى ما فَهِمَتْه آمنةُ وآخوها محمدٌ من نقاشِ والدِهما مع «مارك» أنَّ هذا أصبحَ من المؤلَّفةِ قلوبُهم، وأنَّ عليهم جميعًا أن يسلكوا في البيت سلوكًا إسلاميًّا مثاليًّا، ما استطاعوا، ما دام الشابُّ معهم، فإذا هداه الله إلى الإسلام – كما قال أبوهم – فسيكونُ لهم في ذلكَ فضلٌ كبيرٌ، وأجرٌ من اللهِ كثيرٌ.

* * *

وهذا ما جعل مسؤوليةَ الخروجِ معَ مارك ثقيلةً على كاهل آمنةَ الفَتِيِّ. ولكنها قبلتِ التحدي، مدفوعةً برغبتِها في نيلِ الأجرِ والثوابِ. وخرجتْ مع «مارك» إلى ساحةِ الجامعِ الفسيحةِ العاريةِ، وقد اصطفتْ فيها السواري الأطوانيةُ العتيقةُ، وهيمنتْ عليها من الشمالِ الغربيِّ صومعةُ حسانَ الشهيرةِ التي قوضَ زلزالُ لشبونَة جزأَها الأعلى منذ أربعمائة سنة، وأنهارَ سقفُ المسجدِ الذي كانَ يتسعُ لعشرةِ آلاف مصلٍّ.

وبهرتْ «مارك» زخارفُ المسجدِ الحديثِ الذي أُقيمَ على جزءٍ من أرضِ الجامعِ القديمِ.

وكانت الشمسُ تميلُ إلى المغيبِ. ومع اقترابها من هوائياتِ التلفزيونِ على سطوحِ مدينةِ الأوداية المطلةِ مِنْ عَلٍ عَلَى نهرِ أبي رقراق والمحيطِ الأطلسيِّ، بدأتْ آمنةُ تحسُّ بمغصٍ خفيفٍ يزدادُ اقترابًا وحدَّةً مع دنوِّ أذانِ المغربِ.

وحالفَها التَّوْفيقُ في شرحِ ما كانتْ تريدُ شرحَه لمارك من أن بانيَ الجامعِ هو الملكُ يعقوبُ المنصورُ الموحديُّ الذي كانتْ الأندلسُ في عهده تابعةً للمغرب، وأن صومعةَ حسانَ واحدةٌ من ثلاثٍ بناها يعقوبُ، إحداها في مدينةِ أشبيليةَ بالأندلسِ تدعى «لا خيرالدا». والثانية في مراكش وتدعى «الكُتُبية».

وسألها مارك عن المدينةِ الواقعةِ عبر نهرِ (أبي رقراق) فقالتْ: «إنها سلا» وهي مدينةٌ أقدمُ من الرباطِ العاصمة.

وشرحتْ له كيفَ أن موقعَ العاصمةِ يتمتعُ بجاذبيةٍ خاصة لبناءِ المدن، فهو يجمعُ خمسَ مدنٍ كانتْ في الماضي كاملةَ الاستقلالِ، آهلةً بالسكان، وهي الأوداية وشالة والتُّوارْكة التي تضم القصر الملكي، إلى جانب سلا والرباط. وكلها تقع داخل دائرة لا يتعدَّى قُطْرُها الثلاثةَ كليو مترات!

وغابت الشمسُ، وسمعتْ آمنةُ قرقعةَ البوقِ والمؤذِّنُ يعدُّه لأذانِ المغربِ، فزادتْ حدَّةُ مغصها... وعرفتْ لماذا أحسَّتْ به في البدايةِ ثم نسيتْه، فقدْ كانت مشغولةً عنه بالكلامِ مع مارك.

كان أحدُ مؤذني الجامعِ ذا عاهةٍ صوتيَّة واضحةٍ تجعلُ صوتَه كريهًا مزعجًا، إلى جانبِ انعدام الحاسة الموسيقية عنده، بحيثُ كان يصدرُ عنهُ زعيقٌ نشازٌ يُنَفِّر ولا يبشِّر، خصوصًا حينَ يقعُ على آذانِ الزوارِ الأجانبِ الذينَ يعجُّ بهمُ المكانُ.

وأيقنتْ آمنةُ المرهفةُ الإحساسِ أنَّ العالمَ سينهارُ من حولِها، وأنها ستلوذُ بالفرارِ، ولن تعودَ إلى بيتها أبدًا، إذا جاء من حظِّها ذلك المؤذنُ الرهيبُ! فأغمضتْ عينيْها، ووضعتْ كفيْها على أذنيْها في خشية وتوقُّع، وأخذتْ تبتهلُ إلى اللهِ أن يُنْقِذَها من ذلك الحَرَجِ الكبيرِ، ومن ذلكَ الصوتِ المُنْكَرِ الذي لا بدَّ سيُنَفِّرُ مارك من الإسلامِ الذي بدأَ قلبُهُ ينشرحُ له!

وفكرتْ في أن تَفِرَّ به من هنا. ولكنْ هيهات! فصوتُ المكبِّر يغطي الحيَّ بأكمله!

واستجابَ اللهُ لدعاءِ آمنةَ البريئةِ الطاهرةِ، وهدَّأَ من روع قلبِها المؤمنِ الصغيرِ، فانطلقَ من أبواقِ المسجدِ والصومعةِ صوتُ مؤذنٍ رائعٍ بأذانِ الحرمِ المكيِّ الشريفِ، يُنْعِشُ النفوسَ ويُرْعِشُ الأكبادَ ويحبِّبُ للمؤمنين الاستجابة لنداءِ اللهِ.

وتنفستْ آمنةُ الصُّعَدَاءَ،(١) ونزل العبءُ الثقيلُ عن كتفيْها الصغيرتين، وابتعدَ شبحُ المؤذنِ البشعِ، وما كانَ سيتركُه في نفسِ مارك من آثارٍ سيئةٍ باقية...

ونظرتْ إلى وجههِ الوسيمِ مرتسمًا على حمرةِ الشفقِ القاني، وهو ينظرُ إلى مصدرِ الصوتِ السجيِّ العامرِ بالقوةِ والإيمانِ والحنانِ، وقد أحسَّ بخَدَرٍ ناعمٍ، ونشوةٍ عارمةٍ تسري في جميعِ حواسِّه...

ورأتْ آمنةُ بعينِ قلبِها الطاهرةِ بُستانًا شاسعًا من الزهورِ البيضاءِ تتفتحُ في مكانٍ ما من قلبِ مارك.

---

(١) الصعداء: التنفُّس الطويل من تعب أو همّ.